مخاتلات المقاومة بالتنازل وتمثلات الثورة الجزائرية في كتاب العام الخامس للثورة الجزائرية لفرانز فانون

representations of the Algerian revolution in" the year 5 of the Algerian revolution" F. Fanon

عبد العزيز شعبان[1]/ الاسم abdellaziz chabane

[1]طالب دكتوراه،جامعة مولود معمري تيزي وزو،

azizdjermouna@gmail.com

مخبر: التمثلات الثقافية والفكرية

كريمة حداد[2]/ karima hadad

[2]طالبة دكتوراه، جامعة مولود معمري تيزي وزو،

haddadkarima68@gmail.com

مخبر: تحليل الخطاب

تاريخ الإرسال:2020/08/14 تاريخ القبول: 27 /11/ 2020 تاريخ النشر 01/01/ 2020

ملخص سنحاول في هذه الورقة البحثية الكشف عن تمثلات أو تمظهرات الثورة الجزائرية في فكر فرانز فانون وبخاصة في كتابه الموسوم "العام الخامس للثورة الجزائرية"، حيثُ رصد فيه أهم التبدلات أو التحولات التي طالت المجتمع الجزائري بسبب إعلان الثورة الشاملة، لفك حبائل الاستعمار الفرنسي واسترداد الحق المسلوب. وبالتالي سنعمل من أجل مناقشة هذه التحولات الكبرى، أو لنقل مناقشة هذه التنازلات التي رضخ لها الشعب الجزائري من أجل بلوغ هدف أكبر؛ ألا وهو الاستقلال. وكيف حوّل الجزائريون هذه التنازلات إلى آليات للمقاومة والصمود في وجه الاستعمار.

الكلمات المفتاحية: فرانز فانون، الثورة الجزائرية، المقاومة، الحايك، المقاومة بالراديو.

Abstract In this research article, we will try to reveal the representations or the manifestations of the Algerian revolution in the thought of Franz Fanon. In particular, in his book entitled «The Year 5 of the Algerian revolution", where he followed the changes or the most important transformations that affected Algerian society because of the declaration of the global revolution, in order to break the strings of French colonialism and restore the stolen law.

Key- words: Franz Fanon, the Algerian revolution, resistance, Hayek, radio resistance.

"إنّ حيازة بندقية أو عضوية جيش التحرير الوطني، هي الفرصة الوحيدة المتبقية أمام الشخص الجزائري لكي يعطي معنى لموته. ذلك أن الحياة في ظل السيطرة قد غدت منذ زمن طويل خالية من المعنى...". العام الخامس للثورة الجزائرية، ص14.

1.مقدمة

يعتبر فرانز فانون الأب المبشّر لما يسمى بدراسات ما بعد الاستعمار، وهذا من خلال مشروعه الفكري الزاخر انطلاقا من عمله الكبير الموسوم "بشرة سوداء أقنعة بيضاء"

[1]هذا الكتاب الذي يُعتبر نقدا صريحا للإنسان المستعمَر، ولنا فقط أن نقرأ العنوان حتى نفهم حجم الانسلاخ والاستلاب الذي وقع فيه الإنسان الزنجي، الذي راح يتّبع خطى الاستعماري، باحثا عن البياض، والتشبّه بكلّ ما هو غربي، لتطهير العرق الأسود، إضافة إلى كتابه الأخير "معذبو الأرض"[2] الذي يعتبر كتابا مهما بالنظر لمادته الما بعد استعمارية، وفيه تلمسنا تلك النظرة الاستشرافية التي يتميز بها فانون. حلل الواقع الاستعماري والعلاقة التي تربط طرفي الشرط الكولونيالي، والتي تحكمها سياط العنف الاستعماري، وفيه تحدث عن ضرورة تبني العنف المنظم من أجل إزالة العنف الاستعماري، والقضاء على همجية الاستعمار، بالإضافة إلى حديثه عن الثقافة القومية، ونقد فيه وبشدة مركب التبعية المنوني[3] وفتح النار على سياسة البلدان المستقلة حديثا، وتحدّث عن زّيف فكر البورجوازية الوطنية، التي تعمل كوكيل وكوسيط بين المستعمرات القديمة الحديثة وبين الاستعمار في علاقة جديدة بمسمّى الاستعمار الجديد أو النيوكولونيالية. وله كتاب آخر بعنوان من أجل إفريقيا وهو مجموعة من المقالات التي نشرها على صفحات جريدة المجاهد، وفيها فضح الاستعمار وسياسته

التوسعية، وجاء في أربعة أقسام: ثقافة وعنصرية، من أجل الجزائر، نحو تحرير إفريقيا، والوحدة الإفريقية.

لقد رصد فرانز فانون في كتابه العام الخامس من الثورة الجزائرية مجموعة من التحولات أو التبدلات التي طرأت على المجتمع الجزائري إبان ثورة التحرير، والتي كانت لغاية سامية، وهدف أعظم، ألا وهو مباغتة الاستعمار الفرنسي الذي شدّد الخناق على الفرد والجماعات، ومارس القمع والتعنيف ضدّ شعب يتوق إلى التحرر من حبائل الاضطهاد والاستبداد الاستعماري، وضدّ القهر وسياسة الاختزال والحيونة والتشييء الممارسة ضدّ إنسانية الجزائري وآدميّته.

"...ففانون عاش في الجزائر الظروف الموضوعية للثورة قبل اندلاعها .. والتقى مع الشعب الجزائري من خلال هذيان المرضى الذين كان يعالجهم في البليدة، ليس مثل الأمراض العقلية كاشفا عن المدى الذي يمكن أن تصل إليه محاولات المسخ والتشويه الاستعماري"[4]لقد انخدع فانون بزيف الاستعمار ورسالته في تحضير الشعوب، وكان من المتطوعين في صفوف الجيش الفرنسي في مواجهة الفاشية والنازية، لكن وبعد أن استقرّ في مستشفى البليدة، رُفع الغشاء الذي غطّى عينيه، وانكشفت أمامه حقيقة الاستعمار، وتجلّت له في صور الوحشية والعنصرية والعنف الفرنسي الممارس ضد الجزائريين، وهنا تغيّرت قناعاته حيثُ "..أصبح مؤمنا بالكفاح المسلح المطلق الشامل ضد الاستعمار"[5] ما جعله يكتب رسالة استقالة من منصبه إلى الحاكم العام بالجزائر، ويقرر بعد ذلك الانضمام إلى حزب جبهة التحرير الوطني، ليكون بذلك مناضلا حقيقيا من أجل استعادة الحقوق المهضومة، ومُرافعا من أجل فكرة الإنسان الكوني.

ولعل أهم سمة يمكن أن تلتصق بهذه التبدلات أو بالأحرى التنازلات التي قدّمها الشعب الجزائري قربانا لحريّته، هي صفة المقاومة، هي الوقوف أمام آلة الموت وجها لوجه، هي المخاتلة ثمّ توجيه الضربة التي ستقصم ظهر الاستعمار؛ بمعنى أنّ تبنّي

هذه التغيرات لم يكن عبثا وإنّما كان كل شيء يسير وفق خطة محكمة البناء والصنع والإخراج. هكذا طبّق الشعب الجزائري استراتيجية المقاومة التي كانت وليدة المرحلة الحساسة التي يمرّ بها المجتمع آنذاك بعد إعلان اندلاع الثورة المجيدة التي أفلست الاستعمار الفرنسي من كلّ جانب. وسنقتصر في هذه الورقة البحثية على مجموعة من أوجه المقاومة التي تميّز بها المجتمع الجزائري كالمقاومة بالحايك وتبني تكنيك الراديو وتبدّل الأدوار داخل الأسرة ورفض الاستشارة الطبية.

2.العام الخامس من الثورة وآليات المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي:

1.2 المقاومة تحت ظلال الحايك:

ولأن الاستعمار لا يدع مكانا إلا ويكون فيه، فإنّ موضوع المرأة يعدّ من الأولويات التي لا تغفل المخابر الاستعمارية العمل عليها، من أجل إحداث تمزقات وتغيرات ستضمن له كسب المعركة في هذا الميدان، ولأن المرأة هي النواة الأساسية لتكوين أي مجتمع، وصلاحه من صلاحها والعكس، فإنّ الاستعمار الفرنسي قد كثّف العمل من أجل كسب ودّ حرائر الجزائر عملا بالمقولة القائلة:" لنعمل على أن تكون النساء معنا وسائر المجتمع سوف يتبع"[6] خطة العمل واضحة إذن، والاستعمار يلاعب ضحيته بسيكولوجيا، ويتودّد إلى النساء للنّيل منهن، وللنّيل من المستعمَر دفعة واحدة بناءً على سياستهم القائلة "إذا أردنا أن نضرب المجتمع الجزائري في صميم بنيته، وفي قدراته على المقاومة، فيجب علينا قبل كلّ شيء كسب النساء، ويجب علينا السعي للبحث عنهن خلف الحجاب حيث يتوارين، وفي المنازل حيث يخفيهن الرجال".[7] لقد بدأ الاستعماري يكشّر عن أنيابه التي سيغرسها على الضحية، سياسة التعرية واستلاب النساء أهم مقوّم تُعرف به ثقافة طائفة ما، مجتمع ما، بلد ما، نوع إنساني ما، والمتمثل في اللّباس، أو ما يُعرف في الثقافة الجزائرية بالحايك (الحجاب)، هذا اللباس الذي يغطي المرأة ويستر عورتها، هذا اللباس المتجذر والموغل في الثقافة الوطنية، والذي يمثل ركيزة أساسية في بناء الشخصية الجزائرية.

الاستعماري بدأ يصعّد من هجماته من أجل الفتك بالمرأة، بأن يعريها ويخرجها إلى الشارع تحت وابل من الشعارات التي سيطلقها، والتي ستفعل في نفسية النساء الأفاعيل، بأن يتحدث عن وضع المرأة في هذا البلد على أنّه سيء لا يقدّر المرأة وأنّها مهملة، مهانة، ومجرّد سجينة في بيوت الرجال، عديمة الفائدة، وشيء عديم الحركة والقيمة وفاقد للإنسانية. "وبدقّة علمية متناهية تُبنى مرافعة نموذجية وتنفذ أحسن تنفيذ لإتمام الجزائري بأنّه سادي يقف من المرأة موقف مصاصي الدماء."[8] إنّ هدف الاستعمار من هذه السياسة المتبعة هو إذلال المرأة والرجل في آن واحد، يسلخ ويجتث المرأة من أصل تكوينها وثقافتها وشخصيتها، ويجعلها تحمل زيفا ثقافيا وانتماء وهميا لا يمت إليها بصلة، أمّا الرجل فيُشعره بالدونية والانهزامية مع كلّ حجاب يسقط، مع كلّ جسدٍ يُعرّى، مع كلّ راية من رايات النساء المتهاوية في مستنقعات الاستعمار.

ويحدث أن تظهر الجمعيات المتعاونة والمتضامنة مع النساء الجزائريات وتتكاثر بشكل رهيب، والتي تتدعي رفضها للمصير الذي آلت إليه حرائر الجزائر، فتسعى جاهدة إلى تحريضهن من أجل تغيير وضعهن الميؤوس، ورفض هذه التبعية المفروضة عليهن منذ قرون طويلة، وتدعوهن إلى فتح أبواب الحرية والانعتاق، ومع هذه المعطيات الجديدة فإنّ الإدارة الاستعمارية لا تقف بمنأى عن هذه التطورات الهامة بالنسبة لمعركتها في كسب النساء، بل تسعى جاهدة لدعم هذه الحركات والجمعيات بضخ مبالغ كبيرة من الأموال من أجل بلوغ الهدف المنشود وهو"...إشعار الجزائري بالخجل من المصير الذي يخص به المرأة."[9] وتفتيت الثقافة الجزائرية فيما بعد.

وتتّخذ سياسة التضييق على الرجال الجزائريين صورا أخرى، على صعيد العلاقات الشخصية المتبادلة مع الأوروبيين، فيسعى هؤلاء إلى إحراج الجزائريين بطرح بعض الأسئلة التي تمس الجانب الشخصي للفرد من قبيل:" هل زوجتك محجبة؟ لماذا

لا تختار العيش على الطريقة الأوروبية؟ لماذا لا تصطحب زوجتك إلى السينما وألعاب الكرة والمقهى؟"[10] وهو ما يُشعر الجزائري بنوع من الإحراج إزاء وضعية المرأة.

ويذهب أرباب العمل الأوروبيون أبعد من هذا، حين يتّبعون "أساليب السيو"[11] في محاصرة الجزائريين، فيجعلونهم يقفون أمام خيارين أحلاهما مرّ، فمثلا عندما تتمّ دعوة الجزائري من طرف ربّ عمله لحضور حفل عيد الميلاد أو رأس السنة مع عائلته، يجعله يقف بين نارين: نار الرضوخ والاستسلام وقبول المثاقفة مع المستعمِر، وتقبل ما ستتعرض له زوجته من مضايقات، ومهانة، وبالتالي التخلي عن آلية من آليات المقاومة؛ وبين نار الرفض والمقاومة والوقوف ضد رغبة ربّ عمله، ما سيعرضّه حتما للبطالة.

وكلما كان الرجل ذا مكانة تعليمية أفضل يكون التشهير والإحراج أكبر، "فالفلاح وهو عبد سلبي لمجموعة قاسية يحاكم محاكمة فيها نوع من التساهل من قبل المحتل. وعلى عكس ذلك المحامي والطبيب فإنّه يشهر بهما بشدة. إنّ هؤلاء المثقفين الذين يبقون على زوجاتهم في حالة نصف–عبودية يشار إليهم بالبنان".[12] ويعرف المستعمِر من أين وكيف تؤكل الكتف، ويعرف كيف يصيب الهدف في كلّ مرة يرمي بسهامه نحو الضحية، وهذه المرّة يشنّ حربه من أجل تحرير المرأة بمفهومه هو في ملعب المثقف الجزائري، إذ يسعى بكلّ إمكانياته إلى التنقيص من قدره وثقافته وعلمه، من باب التضييق على المرأة، ومعاملتها على أنها عبدة سبيّة، لا صوت لها ولا حقوق، فيشهّر به كما يجب وينشر غسيله أمام الملأ، ليقتله غيظا، وخجلا من حاله وحالة زوجته، فيلصق به الطابع العنصري ويصدّر شعارات فحواها "..على الرغم من أنّه طبيب إلاّ أنّه يظلّ كما هو، عربيا... الطبع أغلب".[13]، وأكثر ما يُلام به المثقف وقوفه في وجه انتشار العادات الغربية التي تمّ تعليمها إيّاه، وعدم قيامه بالدور الفعال المنوط به وعدم فسح المجال لزوجته لتكون أكثر تحررا وانعتاقا، أي أنّ المثقف وقف كحجرة عثرة أمام المساعي الاستعمارية ولم يفعّلها كما كان الاستعمار ينتظر منه.

ومع كلّ هذه الحملات المسعورة والهجمات المنظمة التي شنّتها الإدارة الاستعمارية ضد المجتمع الجزائري، ورغم سقوط بعض رايات النساء التي قبلت الوضع الجديد وتمثلت أوجها من ثقافة استعمارية دخيلة، إلا أنّ الجزائري بقي متمسكا بمقوماته وبثوابته التي تدخل في تكوين شخصيته الثقافية وعلى رأسها الحايك، ما يبرز تعلقه الشديد به، وجانبا من جوانب المقاومة الثقافية. "وقد أصبح من المألوف كثيرا، أن يسمع الإنسان في التجمعات الكبيرة، أوروبيا، يفضي بحرقة بأنّه لم ير مطلقا زوجة أحد الجزائريين وهو على صلة به منذ عشرين عاما".[14] وهذا دليل على فشل المحاولات الاستعمارية في تعرية وإخراج النساء إلى الشوارع، وتمثل الثقافة الدخيلة، بل وذهبوا أبعد من هذا في إعلان فشلهم الذريع حين تسمع اعترافاتهم "إننا نعمل بدون جدوى" أو "إنّ الإسلام ليمسك بفريسته جيدا".

"..إنّ ظواهر رفض المثاقفة يجب أن تُفهم على أنّها استحالة عضوية، تجد ثقافة ما نفسها عاجزة فيه عن تبديل أي نموذج من نماذج وجودها ما لم تفكر من جديد، في الوقت نفسه، في إعادة النظر في أكثر قيمها عمقا وأكثر نماذجها رسوخا. إنّ الحديث عن رفض المثاقفة في وضع استعماري حديث لا معنى له. إذ يجب إرجاع ظواهر المقاومة التي تلاحظ لدى المستعمَر إلى موقف رفض الاندماج وإلى موقف الحفاظ على أصالة ثقافية أي أصالة وطنية."[15] وموقف فانون واضح حول فكرة المثاقفة في وضع استعماري، ويرى أنّه لا معنى له، فمن منطلق العلاقة التي تربط طرفي الشرط الاستعماري المبنية على العنف والدّم والحراب، فالحديث عن المثاقفة والاندماج حديث كغبار في يوم عاصف، ما يفتح المجال لمفهوم المقاومة والأصالة والحفاظ على الشخصية الثقافية والوطنية بالبروز في الآفاق، وبالتالي كل حالات الرفض وعدم القبول والانقياد التي يأتي بها المستعمَر هي حالات من المقاومة ضد التماهي في الآخر المستعمِر، وضد حالات التفسخ والتفتح المنمهج المغلف بغلاف استعماري.

هي حرب قذرة يشنّها الاستعماري ضدّ المستعمَرين، في ميدان الشخصية الرئيسية فيه هي المرأة، وأبجديات هذه الحرب تقول بأن كل رفض وتمسّك وتشبث بالحايك يعبّر عن مقاومة، وعن حالة سليمة لأنظمة الدفاع الجزائرية، وكلّ سفور وتخلّي عن الحايك هو انتصار للخطط الاستعمارية، "وتعلن كلّ امرأة جزائرية جديدة سافرة، إلى المحتل عن مجتمع جزائري، تأذن نظمه الدفاعية بالتفسخ، وإنّه مجتمع مفتوح وممهد، وكلّ حجاب يسقط وكلّ جسم يتحرر من وثاق الحايك التقليدي وكلّ وجه يبرز لنظر المحتل الوقح، المتلهف لرؤيته، يكشف على نحو سلبي بأن الجزائر قد بدأت في التنكر لنفسها وتقبل بهتك سترها من قبل المستعمِر."[16] وليس التخلي عن الحايك بالأمر الهيّن، ولا بالسهل، بل يتعدّى ذلك إلى إضفاء دلالة رمزية على هذا السلوك الذي يدلّ على أن المجتمع في حالة مرضية، وأنّ مناعته بدأت تضعف، وضعف المناعة فرصة ذهبية للأمراض الفتاكة لتتخذ من هذا المجتمع المريض وطنا، هذا التخلي عن الحايك له دلالة على حالات التفسخ والتفكك، وتحطم أنظمة المقاومة. والتخلي عن آلية المقاومة هذه هو تنكر للذات، وارتماء في أحضان الآخر الاستعماري.

لكن ولأن كلّ شيء يتغيّر وفق السياقات التي تطرح نفسها وفقا لمختلف المراحل، ولأن المرأة السافرة المتشبهة بالأوروبيات تتنقل بشكل سلس ودون مضايقات رجال الشرطة، ولأن المرحلة الراهنة أيضا تتطلب الدخول في حرب شاملة، فقد بدأ التفكير بشكل جديّ وانطلاقا من عام 1955 إشراك المرأة في القيام بالعمليات العسكرية إلى جانب الرجل، وزرع القنابل في المستوطنات الأوروبية، وفي كل الأماكن التي يصعب على الثوار دخولها، هنا فقط تحولت الخطة، وتغيرت الاستراتيجية، وتبدلت النظرة إلى الحايك، فمن مجرد كونه مكونا من مكونات الشخصية الثقافية الوطنية، أصبح آلة ومعولا أساسيا للمقاومة والعباءة التي يتخفى تحتها الثوار لتسهيل التحركات، أو تخلي النساء عن الحايك والتشبه بالأوروبيات ليسهل لهن عملية التنقل

والدخول والخروج والقيام بالعمليات العسكرية بطريقة ناجعة متقنة. "وفي الوقت ذاته عليها مواجهة عالم المحتل المعادي بجوهره وقوى البوليس المعبأة، اليقظة الفعالة. ويجب على الجزائرية في كلّ مرة تدخل فيها إلى المدينة الأوروبية أن تحرز نصرا على ذاتها على مخاوفها الطفولية. يجب عليها أن تستعيد صورة المحتل المثبتة في مكان ما من عقلها وفي جسمها لكي تعيد تكوينها وتمهد للعمل الرئيسي في تآكل هذه الصورة وجعلها غير أساسية، وانتزاع شيء من غرورها، وإبطال قداستها."[17]هذا هو الهدف الذي من أجله قدّمت الجزائرية حايكها قربانا، رغم المخاوف والصعوبات، محو الاستعمار، ومحو صورته من مخيلة المستعمَر، وكسر مركزيته وقداسته التي لطالما سعى إلى ترسيخها في أذهان المستعمرين، أسطورة الإنسان الأبيض، السرديات الكبرى التي رسخت غلبة المستعمِر وانهزامية وتبعية المستعمَر.

لقد لعبت المرأة دورا هاما وبارزا حتى أصبحت حلقة هامة وأساسية في الآلة الثورية، وحملت حملا كبيرا جعلها تتبوأ مكانة رفيعة في تحرير الجزائر باللّعب على أوتار المخاتلة والتمويه؛ تنازل من أجل هدف، أو تبدّل وتحول من أجل غاية عظيمة. هكذا تحول مدلول الحايك من مجرد مكون أساسي في تكوين الشخصية الجزائرية، إلى وسيلة لتحريك دواليب الثورة وإشعال فتيلها.

2.2الراديو: مقاومة على الأثير:

ومن آليات المقاومة التي رصدها فرانز فانون في كتابه العام الخامس للثورة الجزائرية، قضيّة الراديو. أين يمكن لنا أن نميّز بين مرحلتين أو بالأحرى بين موقفين للشّعب الجزائري إزاء هذا الجهاز، مرحلة الرفض ومرحلة القبول، مرحلة المقاومة ومرحلة التبنّي. لكن لماذا هذا الرفض في أوّل الأمر والقبول في آخر المطاف؟

قبل عام 1945 كانت نسبة 95 بالمائة من أجهزة الراديو موجهة إلى الأوروبيين، أمّا نسبة الجزائريين الذين يملكون هذا الجهاز فتقتصر أساسا على الطبقة البورجوازية المتطورة وبعض القبائليين المهاجرين العائدين إلى القرية. وكانوا يلتقطون

موجات راديو الجزائر".. وهو عبارة عن محطة إذاعية فرنسية مقامة في الجزائر منذ عشرات السنين، أي طبعة ثانية، أو صدى لمحطة البث الفرنسية الوطنية المقامة في باريس"[18] وإذا عُرف السبب بطل العجب، إذ يكفي معرفة أصول وجذور راديو الجزائر حتى نفهم نسبة الـ95 بالمائة من أجهزة الراديو الموجهة خصيصا للأوروبيين في الجزائر، وسبب الصدود والرفض وعدم القبول لهذا الجهاز من طرف الجزائريين، حيث يعتبر الراديو "شبه وسيلة للصمود عند الأوروبيين ووسيلة للضغط الثقافي على المجتمع الخاضع".[19] والرفض منطقي بالنظر إلى الحمولة أو البُعد الثقافي الذي اكتسبه هذا الجهاز، وإلى اعتباره وسيلة ضغط على المستعمَرين وإثبات وجود الذوات الاستعمارية، وتذكيرهم بسلطتهم ومنحهم أمنا وراحة بال. ومما يثبت أنّ الراديو وسيلة صمود للاستعماريين قولهم:" لولا الخمر والراديو لكنا قد استعربنا"، كل هذه الأقوال التي ساقها فانون يعزز موقف الرفض الذي تبناه الجزائريون إزاء هذا الجهاز الاستعماري.

"إنّ راديو الجزائر، أي صوت فرنسا في الجزائر يشكلّ المركز المرجعي الوحيد على مستوى الإعلام. وراديو الجزائر هو يوميا بالنسبة للمستوطن، دعوة لعدم التمازج مع السكان الأصليين وعدم نسيانه لحق ثقافته."[20] راديو الجزائر هو الصوت الثقافي لفرنسا في الجزائر، وهو تكنيك المحتل في إطار السيطرة الاستعمارية على الأنديجان، وتذكير للمعمرين بأصولهم ودعوة إلى رفض المثاقفة والاندماج مع المستعمَرين.

لما يتحول هذا الجهاز من مجرد راديو لاستقبال الترددات، إلى تكنيك للسيطرة والهيمنة، ونشر الثقافة الفرنسية، وتأكيد وجود الذات الاستعمارية وتفوقها على الأهالي، فإن الرفض سيشتد، والمقاومة ستأخذ مجراها، وتظهر صور رفض المثاقفة مع الثقافة الدخيلة من طرف المستعمَرين، وهذا ما حدث فعلا في المرحلة الأولى، والذي يلخصه موقف الرفض وعدم قبول الراديو كصورة من صور المقاومة وإثبات للوجود.

ولعلّ أهمية الراديو – على خلاف الوسائل الإعلامية الأخرى وخاصة المكتوبة منها– "تكمن في قدرة هذا الجهاز على الدخول إلى بيوت الناس، والتسلل إلى داخل

أنظمتهم الاجتماعية والثقافية والأخلاقية، ناهيك عن قدرته في صياغة الخبر والتأثير في الرأي العام"[21] وهذا التسلل السلس لجهاز الراديو إلى أنظمة المستعمَر الاجتماعية والثقافية، تمنح له القدرة على التأثير والتبديل في القيم والآراء، ومن ثمّ السيطرة والهيمنة عليهم، وفي هذا الخصوص يشير فانون إلى استخدامات الراديو من طرف الإدارة الاستعمارية من أجل غرس مركبات النقص والدونية في نفوس الجزائريين، من خلال تقزيمه والعمل إهانته وتجريحه، "حقا، يشير الراديو من حين إلى حين إلى التواريخ الكبرى لاحتلال الجزائر، وهو يفعل ذلك ببذاءة تكاد تتحول إلى نوع من فقدان الشعور، فيُجرّح ويُمتهن المقاوم الجزائري الذي تصدى للاستعمار في 1830"[22]. هكذا يستغل الاستعماري الراديو في حربه النفسية على المستعمَرين، ويزجّ بهم في غياهب التبعيّة والاستعباد، ويكبلهم بسلاسل العبودية كما يجب، وهذا ما جعل الإقبال على الراديو ضعيفا من طرف الجزائريين، لأنه أصبح تكنيكا وسلاحا استعماريا هدفه هو السيطرة عليهم، مثله في ذلك مثل أي سلاح آخر.

لكن وفي عام 1956 تبدلت الأوضاع، وتغيرت المعطيات؛ لقد ظهر إلى الوجود "صوت الجزائر الحرّة" "هذا الصوت الذي يتكلم من الجبال وغير محدد جغرافيا، ولكنّه ينقل بلاغ الثورة العظيم إلى الجزائر كلّها"[23] . وهذا التحوّل وحده جعل نظرة الجزائريين تتغير إلى جهاز الراديو، ففي أقل من عشرين يوما نفذت كل كميات الراديو الموجودة في المستودعات، جراء الإقبال الكبير والمتزايد عليه.

لقد فهم الجزائريون أنّ الحرب الآن تجري رحاها على أمواج الإذاعات، وبالتالي يتوجب عليهم تغيير نظرتهم إلى الجهاز، وتبنيه من أجل متابعة تفاصيل الثورة عن كثب من خلاله، ولم يعد يُنظر إلى الراديو على أنّه تكنيك استعماري، بل أصبح وسيلة من وسائل المقاومة، حين دخلت الجزائر حرب الأمواج مع السلطات الفرنسية. "لم يعد جهاز الراديو جزءً من ترسانة القمع الثقافي الذي يمارسه الاحتلال، إنّ المجتمع الجزائري إذ يجعل من الراديو وسيلة فريدة للمقاومة في وجه الضغوط البسيكولوجية

والعسكرية المتزايدة، يقرر بحركة مستقلة داخليا تبني التكنيك من جديد، فيكون بهذا مربوطا بالطرق الجديدة في استخدام الإشارات التي أبدعتها الثورة".[24]

3.2 تبدلات في قيم الأسرة؛ تنازلات من أجل التحرير:

ومن أهم التحوّلات التي طرأت على المجتمع الجزائري، بعض التبدلات في قيم الأسرة، والتي لم تكن من أجل المثاقفة مع الاحتلال، وإنما خدمة لأغراض الثورة، ومن أجل هدف أعظم وهو الاستقلال وفكفكة الاستعمار.

ومن المعروف في الثقافة الجزائرية أنّ الأب هو صاحب القيادة والسلطة داخل الأسرة، ولا كلمة تعلو فوق كلمته، وعلى الابن السمع والطاعة دون مجادلة، وكثيرا ما لعب الآباء دورا سلبيا في فترة الاستعمار، حيث كان "..الأب المستعمَر ينفح أولاده، في فترة كفاح التحرير، الشعور بالتردد وتجنب الاختيار وحتى تبني سلوكية الهرب وعدم المسؤولية"[25] ولكم أن تتصوّروا كيف ستكون نفسية الأبناء وكيف تكون منظومة المقاومة لديهم، لما يأخذون كلّ هذه السلبية من آبائهم، قدوتهم في الحياة ومثلهم الأعلى الذي استسلم أمام الترسانة الحربية للاستعمار، وهاهم الآن يعلمونه الهرب وعدم تبني المقاومة ويبثون في هم الانهزامية والاستسلام، ويكفي أن نسمع إلى قولهم:" اِبقوا هادئين، إنّ الفرنسيين أقوياء جدا، إنّكم لن تصلوا إلى ما تبتغون أبدا"[26] لنفهم حجم الضرر، والعنف الذي مارسه الاحتلال ضد الجزائريين، لنتبيّن حقيقة الانهيار النفسي الذي تعرض له الآباء جراء السياسة الاستعمارية التي جعلتهم يقنطون ويقطعون الأمل في الاستقلال وهاهم الآن يريدون نقل العدوى إلى أبنائهم، فهل سيقبل الأبناء مثل هذه الخطابات الانهزامية؟

الأبناء لا يقتنعون بهذا الكلام الانهزامي الاستسلامي، ولا يتقبلونه اطلاقا، لقد اختاروا الكفاح والنضال والمقاومة، وأمام هذ القرار المصيري تقف مكانة الأب أمام محك الأبناء ورغبتهم القوية في التحرر والانعتاق، على الأب أن يتنازل بالقيادة إلى ابنه إذا ما اختار الاستسلام، وهنا يحدث أكبر تبدّل في قيم الأسرة الجزائرية بأن

يصبح الأب منقادا وليس قائدا، بأن يتنازل عن مكانته لابنه المناضل. هكذا غيّرت حرب التحرير هذه العلاقة بين الأب وابنه، وتنازل الأب عن مكانته لابنه، "غير أن هذا التحول الذي يطرأ على الأب لا يزيل جذريا أنماط السلوك التقليدية، وبصعوبة يفرض الأب الصمت على رغبته، في إرجاع سيادته المنهارة إلى ما كانت عليه، والتخلص من وسواس نتائج هذه الحرب المعلنة المخيفة"[27] ويقرر الأب الالتحاق بابنه ومساعدته في خدمة أهداف الثورة، والسعي من أجل تحرير الوطن، ويتنصل من مخاوفه وهواجسه التي كبلته ردحا من الزمن.

وكان التبدّل الثاني لصالح الابنة هذا الكائن المهمّش في الأسرة الجزائرية الذي لا صوت له، فليس لها الحق في الكلام وإبداء الرأي أو مناقشة الرجل الذي يعتبر القائد والمركز في العائلة ومكانها هو البيت الذي لا يجب أن تغادره لأي سبب إلا بأمر الرجل. لكن وباندلاع الثورة تغيّرت الأمور وانقلبت الأوضاع حين أصبحت الابنة مناضلة إلى جانب الرجل في الجبال ولهم هدف واحد وواضح وهو تصفية الاستعمار. لقد قلبت الثورة كل المفاهيم وكل العلاقات، فقد أصبحت المرأة تبيت في العراء وفي الكهوف والجبال رفقة رجال غرباء لأيام وأيام لكن الأب لا ينظر إلى الأمر بسلبية إنّما ينظر إلى الهدف الكبير للثورة.[28] ولنا أن نعرف معنى أن تبيت البنت مع غرباء في العراء لأيام وفي مجتمع محافظ، ويقبل الأب بذلك ويتنازل عن شرفه لصالح حرب التحرير.

أضف إلى ذلك تبدلات أخرى بين الإخوة، والمعروف أن الأخ الأكبر هو خليفة الأب المباشر، لذلك يكنّ له أفراد الأسرة التقدير والاحترام، لكن الثورة الجزائرية غيرت كل شيء، وانقلبت الموازين، وأصبح الابن الأصغر المناضل هو القائد والمسؤول بين الجماعة، وكذلك حدثت تغيرات أخرى في العلاقة بين الأزواج والتي فرضتها طبيعة الكفاح الشاملة.

4.2 رفض الاستشارة الطبية كآلية من آليات المقاومة:

يعتبر الطّب من بين أهمّ المعاول التي يعتمد عليها الاستعماري في مهمته داخل المستعمرات، فقدوم المستعمِر لم يكن عبثا ولهوا، وإنّما من أجل نشر الحضارة بين السكان المحليين، الغارقين في التخلف والمرض، ولنا أن نسمع هذه الشعارات الاستعمارية لنتبيّن حقيقة الطبّ الإمبريالي حين يرون أنّ "العذر الوحيد للاستعمار هو الطبّ"، و"أيًّا ما كانت المساوئ السياسية للاستعمار، فإنّ نجاحه من الناحية البيولوجية يعدّ من أعظم قصص النجاح في التاريخ الحديث"[29] لكن هل نجح الطب الاستعماري فعلا على أرض الواقع؟ ولماذا يعطون هذه الصورة الناعمة للاستعمار ويخفون وجهه القبيح والدموي؟

لقد كان الطب وسيلة أخرى للهيمنة والسيطرة على المستعمَرين وترويضهم،إذ "إنّ الطب نفسه كان وسيلة لنقل الأفكار الإمبريالية وتطبيقاتها، طارحا تبصرات مليئة بالإيحاءات فيما يتعلق بالصفة العامة للتوسع الأوروبي"[30] إذن الطب الاستعماري يخدم أغراض الإمبراطورية، وهو مِعْولُ هام في نشر الأفكار التوسعية الإمبريالية التي "تضفي ضوءً كاشفا على حقيقة أنّ الطّب أيديولوجية بقدر ما هو تطبيق"[31] ، وهكذا يكتسي الطبّ طابعا إيديولوجيا يسعى من خلاله إلى إرساء معالم العالم الاستعماري.

بل ويذهب الاستعماريون أبعد من هذا حين ينظرون إلى "...أفريقيا وآسيا والأمريكيتين على أنّها كلّها لها أمراضها المميتة المعوقة، التي لا يمكن السيطرة عليها على نحوٍ فعَّالٍ إلاّ عن طريق ما في الطبّ الأوروبي من فائق المعرفة والمهارة"[32]ومن هذا المقطع يتبيّن لنا كيف يُصوّر الأوروبي على أنّه المخلِّص والمنقذ والعارف بدقائق الأمور، في مقابل هذا المستعمَر الضحية الذي يُغلِّفه الجهل، وانطلاقا من هذا الموقف أو هذا التقابل تشكل موقف الرفض للطبّ الاستعماري، حيث أصبح رفض الاستشارة الطبية مثلا وجها من أوجه المقاومة لدى المستعمَر، وأصبح الطب نقطة

للصراع بين طرفي الشرط الكولونيالي، ويُنظر "...إلى الطب والمرض على أنّهما يوصّفان علاقات من القوة والسلطة بين الحاكمين والمحكومين وبين العناصر المكونة للاستعمار".[33]

هذا ما صوره فانون في الفصل الرابع من كتابه العام الخامس للثورة الجزائرية المعنون بـ: "الطّب والنظام الاستعماري"، تلك العلاقة بين السكان الأصليين والمستعمِر في ميدان الطّب، وتلك التجاذبات والصراعات بينهما، بين السعي لإحكام القبضة والسيطرة على المستعمَرين من بوابة الطبّ، وبين المقاومة برفض الاستشارة الطبية ورفض المنظومة الطبية الاستعمارية كلية، وموقف الإنسان الجزائري لم يأت من فراغ، وإنّما جاء بسبب تلك الظروف المعيشية داخل المستعمرة، وجراء التقتيل والتعذيب والتنكيل والإلغاء الذي يتعرض له، ففقد الثقة في المنظومة الاستعمارية بأكملها وأصبح يرى كل ما هو آتٍ من المستعمِر بمثابة مخطط لإحكام السيطرة والهيمنة عليهم. "ولم تكن الإحصائيات الصادرة عن الإنجازات الصحية تُفسّر من قبل المواطن الأصلي على أنّه تحسين في الكفاح ضدّ المرض بصورة عامة، وإنّما كبرهان جديد على إحكام قبضة المحتل على البلاد"[34] وبهذه الطريقة كان الجزائري ينظر إلى المنظومة الطبية الإمبريالية، على أنّها سلاح استعماري من أجل السيطرة والهيمنة والدّليل على هذا ما يقوله المستعمِر:" إليكم ما فعلناه من أجل رجال هذه البلاد، هذه البلاد تدين لنا بكلّ شيء وبدوننا لا يمكن أن توجد بلاد"[35] تكبيل وتغليف للسكان الأصليين بغلاف التبعية والاستعباد، ولسان قول الاستعمار أنتم لا شيء من دوننا، وبحاجة إلينا دائما لأننا صنعناكم ووجودكم مرتبط بنا.

والمستعمَر لا يثق في الطبيب المستعمِر لأنّه لا يفرّق بينه وبين رجال البوليس والجيش، فتجده لا يقصد المستشفيات لأنّ هذا عنده ضرب من ضروب المقاومة والصمود ضد الاستعمار، والذهاب إلى الطبيب الاستعماري يعدُّ قبولا وخضوعا وانهزاما، وإن حدث وذهب يوما فتجده لا يبوح بشيء ولا يعترف أبدا أمام هذا

الطبيب بمُصابه؛ يكذب ويراوغ ويكون شحيحا في توصيف الأوجاع التي يعاني منها بدافع الخوف من هذا الطبيب الأجنبي. وتعدُّ الاستشارة امتحانا عسيرا للمستعمَر الذي يرى نفسه منتصرا إذا ما نجا من الطبيب وبقي جسمه بتمامه. ويعتمد المريض المستعمَر كذلك على الطبّ التقليدي والسحر في الوقت نفسه الذي يذهب فيه للعلاج عند الطبيب الأجنبي، فكما يقولون "علاجان خير من علاج واحد"، إذن هناك فقدان ثقة بين المريض المستعمَر والطبيب الأجنبي وحتى مع الطبيب الأهلي الذي يُعتبر متأَورِبًا ومنتميًا إلى المجتمع المسيطِر لذلك شاعت مقولة "لقد أخذ بعادات السيّد". ففي حرب التحرير كان الطبيب الأوروبي يعمل إلى جانب الاستعمار ويتاجر مع مرضاه لكسب المال متخليا عن كل مسؤولية وعن كل إنسانية وعن المبادئ والقيم المنصوص عليها، وهذا ما جعل اغتيال الأطباء يشيع لأن الطبيب أصبح مجرم حرب ولم يعد طبيبا. وفي الصيدليات أطباء لا يسلّمون الأدوية الضرورية للمرضى الجزائريين، أضف إلى ذلك الأطباء في مكاتب التعذيب الذين يعملون على إبقاء حياة المعذَّبين من أجل مواصلة تعذيبهم. ومع كلّ هذه الأوضاع تتغيّر النظرة إزاء الطبيب الأهلي الجزائري الذي لم يعد سفير المحتل بعدما اندمج مع الجماعة وأصبح بذلك طبيبنا وخبيرنا بتعبير الأهالي. وفي 1956-1957 تغيّرت نظرة الشعب الجزائري للمستشفيات التي يديرها الفرنسيون فقصدوها للتداوي عندهم، وهذا ما أثار دهشة وحيرة الأطباء الأوروبيين، كتكنيك حربي يهدف إلى الاحتفاظ بالأدوية من أجل العناية بالعسكريين. وهذا ما يعكس درجة الوعي الذي وصل إليه الشعب الجزائري، أين أصبح يستثمر في أشياء استعمارية خدمة لمصالح الحرب التحريرية[36].

3. خاتمة

لقد تمكّن فرانز فانون من رصد أهمّ التحولات والتنازلات التي قدّمها الشعب الجزائري قربانا لحريته وانعتاقه، في كتابه هذا **العام الخامس للثورة الجزائرية**، ما جعل هذا المؤَلَّف صورة دقيقة وقريبة لمقاومة الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي،

وشهادة عظيمة من مفكّر حمل لواء الشعوب المستعمَرة، وقضيّتها، ورافع من أجل حقوق الإنسان، وفضح الاستعمار وأساليبه في المستعمرات، وعرّى سياساته التوسعية الإمبريالية، وناضل من أجل إنسانية الإنسان، أي الإنسان الكوني والحقوق الكونية. من منطلق نضاله الطويل في حزب جبهة التحرير الوطني، ومشاركاته الميدانية قبل هذا في علاج المرضى الجزائريين في مستشفى جوان فيل (البليدة) للأمراض العقلية، حيث اكتشف حقيقة الاستعمار، والعنف الممارس ضد المستعمَرين، ما جعله يختار الوقوف إلى جانب المستضعفين والمضطهدين، وكذا عمله كسفير للحكومة الجزائرية في المحافل الدولية مكّنه من معايشة التحولات الكبرى للمجتمع الجزائري، بسبب الدخول في حرب شاملة ضد الاستعمار.

الهوامش:

---

[1]– فرانز فانون، بشرة سوداء أقنعة بيضاء، تر: خليل أحمد خليل، ANEP–دار الفارابي، ط1، الجزائر–لبنان،2004.

[2] – فرانز فانون، معذبو الأرض، موفم للنشر، د.ط، الجزائر،2006.

[3] – نسبة إلى **أوكتاف منوني**O.Mannoni، الذي تحدث في كتابه **سيكولوجية الاستعمار** على مركب التبعية الذي يتميز به الإنسان الملغاشي خاصة والمستعمَر عامة، على أنّه موجود بالفطرة في نفسية المستعمِر، وبأنّه بذر وُلد به الملغاشي: أي أنّ المستعمَر يتميز بالتبعية للاستعمار بالفطرة، ولا دخل للأخير في ذلك.

[4] – فرانز فانون، من أجل إفريقيا، تر: محمّد الميلي، منشورات المطبوعات الوطنية الجزائية، ط1، الجزائر، 1966، ص 6.

- ولمزيد من التفاصيل أنظر كتاب: محمّد الميلي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، الجزائر 2007.

[5]– فرانز فانون، من أجل إفريقيا، ص 7.

[6]– فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، تر: ذوقان قرطوط، مرا:عبد القادر بوزيدة،ANEP–دار الفارابي، ط1، الجزائر–لبنان،2004ص 26.

1. Frantz Fanon, L'an 5 de la révolution algérienne, Ed : TALANTIKIT, Bejaïa, 2012 , p17.

[7] المصدر نفسه، ص 26.

[8] فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ص26.

[9] المصدر نفسه، ص 27.

[10] المصدر نفسه، ص 28.

[11]السيو قبائل من الهنود الحمر في أمريكا، اشتهرت بأساليب محاصرة العدو.

[12] المصدر السابق، 30.

[13] المصدر نفسه، ص 30.

[14]فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ص 30.

[15] المصدر نفسه، ص 31.

[16] فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ص 32.

[17] فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ص 44.

[18] فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ص 65.

[19] المصدر نفسه، ص 69.

[20] المصدر نفسه، ص 68.

[21] مقال: لونيس بن علي، فرانز فانون والتقنية؛ الإذاعة وصوت الثورة، جريدة الخبر، 8 يناير 2015.

[22] فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ص 70.

[23] المصدر نفسه، ص 81.

[24] المصدر نفسه، ص 83.

[25] المصدر نفسه، ص 102.

[26]المصدر نفسه، ص 105.

[27] فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ص 107.

[28] ينظر: المصدر نفسه، ص108-114.

[29] دافيد أرنولد، الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية، تر: مصطفى إبراهيم فهمي، عالم المعرفة، الكويت، 2002، ص 15.

[30] المرجع نفسه، ص 10.

[31] دافيد أرنولد، الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية، ص 10.

[32] المرجع نفسه، ص 14.

[33] المرجع نفسه، ص 14.

[34] فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ص 128.

[35] المصدر نفسه، ص 128.

[36] ينظر: فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ص 128-154.

المراجع:

1. دافيد أرنولد، الطب الامبريالي والمجتمعات المحلية، تر: مصطفى إبراهيم فهمي، عالم المعرفة، الكويت، 2002.

2. فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، تر: ذوقان قرطوط، مرا:عبد القادر بوزيدة،ANEP-دار الفارابي، ط1، الجزائر-لبنان،2004.

3. فرانز فانون، بشرة سوداء أقنعة بيضاء ، تر: خليل أحمد خليل، ANEP-دار الفارابي، ط1، الجزائر-لبنان،2004.

4. فرانز فانون، معذبو الأرض، موفم للنشر، د.ط، الجزائر،2006.

5. فرانز فانون، من أجل إفريقيا، تر: محمد الميلي، منشورات المطبوعات الوطنية الجزائرية، ط1، الجزائر، 1966.

6. لونيس بن علي، "فرانز فانون والتقنية؛ الإذاعة وصوت الثورة"، جريدة الخبر، 8 يناير 2015.

7. محمد الميلي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، الجزائر 2007.

8. Frantz Fanon, L'an 5 de la révolution algérienne, Ed :TALANTIKIT, Bejaïa, 2012.